البحـــث العلمي صورة البـــاحث ومـــــرآة الجـــامعة

The scientific research : an image of its author and a mirror of the university

د.إسماعيل زغودة

Aboufirass84@gmail.com

جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف

ملخص بالعربية:

يعد البحث العلمي صورة من صور التقدم و التطور في شتى المجالات. و لعله أحد أسباب رقي الامم، فهو الوجه الجمالي لصاحبه، و مرآة عاكسة للمؤسسة التي تشرف عليه.

لابد للبحث أن يكون ممنهجا وفق المعايير العلمية المتعارف عليها. و المنهج أحد الوسائل التي لابد أن يتحكم فيها الباحث لأن وفقه يكون البحث ناجحا أو فاشلا.

الكلمات المفتاحية: بحث، منهجية، باحث، جامعة.

ملخص بالإنجليزية:

The scientific research is considered as a tool of the progress and the development of any nation in every aspect of life.

Meanwhile, the method reflects the beauty and the elegance of its author and it reflects the status of the whole institution in which the searcher belongs.

Thus, the scientific research must be methodicaland must be built according to scientific criteria.

For that, the method is a necessary tool that the searcher must manage and control in order to succeed in his work.

Key words : research – method – searcher – university.

تمهيد:

ظهر البحث منذ أن وطأ الإنسان على وجه الأرض، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ويرجع ذلك إلى بحثه عن المعرفة ومستجداتها، بطريقة ممنهجة أو غير ذلك، وتعددت أبحاث الإنسان منها ما تعلق بمحيطه وما هو حوله، ومنها ما تعلق به محاولة سبر الأغوار والبحث عن الأسرار، بيد أن التطور الحاصل في مختلف المعارف فرض طرائق لابد للباحث أن يلتزمها، من ذلك الإلتزام بالمنهجية العلمية، والأسلوب العلمي في البحث.

مفهوم البحث:

تتفق جل المعاجم اللغوية على أن البحث هو التنقيب والتفتيش والتقصي، فهو طلبك الشيء في التراب[1]. فهو لصيق بحياة الإنسان ما دامت الحياة مستمرة، يتغير بتغير الحال والمآل، فالبحث قديم قدم الإنسان نفسه ومنذ نشأت حاجته إلى تلبية رغبات تحقق له الرفاهية معيشية كانت أم فكرية، أما في وقتنا الحالي فالبحث هو جزء لا يتجزأ من حياة أية أمة، إذ لا يكاد يمر يوم من أيام حياتنا دون أن يتخذ الواحد منا عشرات القرارات ويحل العديد من المشاكل والمشاكل والمسائل التي تواجهه ومع ازدياد الحياة تعقيدا تزداد المسائل التي نواجه صعوبة في حلها[2].

فالبحث مفهوم متفلت يفسره كل واحد حسب نظرته ومدى استيعابه للمصطلح، ومجال تخصصه،فالدارس جود Good يرى أن مفهوم البحث "يختلف باختلاف أنواع البحوث ومجالاتها وأهدافها ووسائلها وأدواتها، وبالتالي فإن من الأفضل ألا نشغل الباحث أو الدارس منذ بداية دراسته لمناهج البحث بمسألة التعريف، ويكتفي بالتأكيد على نوعية البحث الجيد وخصائصه"[3].

نستنتج مما سبق أن الغاية المرجوة لا تتمثل في مدى اختلاف المفاهيم وإنما في تمييز البحوث التي تأتي بالمنفعة على الفرد والمجتمع.

وتلتصق كلمة البحث بالعلم على سبيل الوصف فنقول (البحث العلمي)، وأبحث صفة العلمية لازمة لكل بحث، فمن مفاهيم البحث نذكر[4]:

- عرفه فان داليين بأنه المحاولة الدقيقة الناقدة للتوصل إلى حلول للمشكلات التي تؤرق البشرية وتحيرها. ويولد البحث العلمي نتيجة لحب الاستطلاع والشوق العميق إلى معرفة الحقيقة، وتحسين الوسائل التي تعالج بها مختلف الأشياء.
- أما هيلواي (Hillway) فيرى بأن البحث هو وسيلة للدراسة يمكن بواسطتها الوصول إلى حل لمشكلة محددة، وذلك عن طريق التقصي الشامل والدقيق لجميع الشواهد والأدلة التي يمكن التحقق منها والتي تتصل بهذه المشكلة.
- وفي نظر بولنسكي (Polansky) فهو استقصاء منظم يهدف إلى اكتشاف معارف والتأكد من صحتها عن طريق الإختبار العلمي.
- وأما توكمان فيرى بأنه محاولة منظمة للوصول إلى إجابات أو حلول للأسئلة أو المشكلات التي تواجه الأفراد أو الجماعات في مواقعهم ومناحي حياتهم.

- وعند ثريا ملحس فالبحث هو محاولة لاكتشاف المعرفة والتنقيب عنها وتطويرها وفحصها وتحقيقها بتقص دقيق ، ونقد عميق، ثم عرضها عرضا مكتملا بذكاء وإدراك لتسير في ركب الحضارة العالمية، وتسهم فيها إسهاما حيا شاملا. أما إذا ابتعد البحث عن هذا الهدف، فلن تكتب له الحياة، وتضيع الجهود المبذولة في سبيله.

ما يمكن استنتاجه من المفاهيم السابقة هو أن البحث يتسم بالدقة والموضوعية والعلمية وعليه فإن البحث لا بد له يقترن بالعلم ولا بد أن يكتسب خصائصه المتمثلة في[5]:

- التراكمية: العلم معرفة تتراكم أفقيا، وعموديا في الموضوع الواحد عمقا واتساعا.
- التنظيم: العمل العلمي عمل منظم في جميع مراحله.
- التعليل: النشاط العقلي العلمي يستهدف فهم الظواهر، وتعليلها، ومعرفة أسبابها.
- الشمولية: تتسم المعرفة العلمية بالشمول وإمكانية التعميم.
- الدقة في التحديد: تتسم عبارات العلم بأنها عبارات محددة تحديدا دقيقا لا يقبل التأويل.

هل البحث الأدبي بحثا علميا ؟

قد نجد نوعا من التمييز بين البحث العلمي والبحث الأدبي، إلا أن الدراسات الحديثة بينت أن البحث الأدبي يتصف بمميزات تجعله يكتسب صفة العلمية، جاء في كتاب أحمد عُلبي الموسوم بـ: المنهجية في البحث الأدبي: "بيد أن البحث الأدبي،على كونه أدبيا، يحتاج، فضلا عن صفات الباحث، ذات الطابع الخَلقي والخُلقي، إلى سمات وخصائص تدخله في حيز التفكير الأدبي، لأن البحث الأدبي هو بحث علمي أيضا"[6].

ولكن تتعدد وتتشكل ميادين البحث منها ما يتصل بالعلوم الدقيقة ومنها ما يتصل بالعلوم الإنسانية، ولكن تعالج بطريقة موضوعية "تتسع ميادين البحث العلمي لتشمل مشكلات الحياة جميعها، فالبحث العلمي لا يقتصر على دراسة الظواهر الطبيعية فقط بل يشمل الظواهر الاجتماعية والإنسانية والسيكولوجية والإقتصادية والتربوية...الخ وذلك على الرغم من وجود من يعتقدون بأن البحث العلمي مرتبط بالظواهر الطبيعية مثل الفيزياء والكيمياء والأحياء والفلك أما العلوم الإنسانية فلا يمكن استخدام المنهج العلمي في دراستها"[7].

لا تزال هذه الأفكار في ذهن العديد من المثقفين والدارسين على رغم من الإنفصال الذي شهدته العلوم في القرن التاسع عشر وأصبح كل علم قائم بذاته، إلا أن النظرة القاصرة تجاه العلوم الإنسانية ظلت سائدة، وبالتالي يمكن القول أن صفة العلمية لا تطلق غلى الدراسات والأبحاث المتخصصة في الطبيعيات والرياضيات والجغرافية وإنما هي صفة تطلق على كل دراسة تستجيب لمقاييس وشروط تم تحديدها من قبل متخصصين.

فالبحث لا يقتصر على ميدان واحد، وإنما مجاله واسع جدا "بحيث يغطي جميع مناحي الحياة، والأبحاث قد تصنف بالنسبة إلى مواضيعها، وفي هذه الحالة نجد أنفسنا أمام فيض هائل من أنواع البحث، إذ لا يوجد

موضوع أو علم لا يمكن أن يرقى إليه، فالبحث ممكن وحاصل في كل من علوم: الفلك، الطب، الكيمياء، الفيزياء، الزراعة، التجارة، الاقتصاد، التربية، علم النفس، علم الإجتماع، التاريخ، الفلسفة، الدين وغير ذلك..."[8] ، فهو "كل نتاج ينتجه الدارس – الباحث– في أيّ موضوع من موضوعات العلم أو الفن أو الأدب، أو في فكرة من فكرها، أو في مشكلة من مشكلاتها، فالبحث محاولة لاكتشاف أو استكشاف نوع من أنواع المعرفة، والتنقيب عنه، وتنميته، وفحصه، وتحقيقه بتقص دقيق ونقد عميق، ثم عرضه عرضا مكتملا"[9].

فالبحث الأدبي كسائر البحوث العلمية الأخرى لابد أن يتصف بخصائص ومميزات نجملها فيما يأتي[10]:

- الموضوعية Objectivety
- الاختبارية والدقة Testability and accuracy
- التبسيط والاختصار Parsimony
- أن يكون للبحث العلمي غاية أو هدف.

تكمن أهمية البحث العلمي في:

- للبحث العلمي أهمية كبيرة في حياة الفرد والمجتمع، إذ تعمل بعض المؤسسات العلمية المشجعة للبحث على تخصيص مكافأة لأحسن بحث أو براءة اختراع، كما يرفع البحث المتميز من شأن المؤسسة العلمية المنتجة له بفضله تتحسن مرتبة الجامعة وترقى إلى مصف المؤسسات العالمية.
- يعمل البحث على التعرف على كل ما هو جديد وعلى ما جادت به الطبيعة أو قرائح البشر أو اكتشاف المجهول.
- يرفع البحث كفاءة الفرد وبالتالي يمكن للمؤسسات أن تستثمر في الباحثين الذين جاءوا بأعمال جديدة في مختلف الميادين البحثية.
- للبحث قيمة إنسانية تكمن في جلب الخير للبشر خاصة في مجال التكنولوجيا والعلوم الطبية خاصة في الأوقات التي تشهد فيه البشرية نوعا من اللاستقرار.
- يساعد البحث على تنمية قدرات الباحث وتطوير مدى عطائه.
- الرغبة في الحصول على أرقى الدرجات العلمية.

المنهج والمنهجية في البحث:

بالرجوع إلى المعاجم اللغوية العربية نجد أن مادة (نهج) ومنها (منهج) تدل على الطريق الواضح، طريق نهج بين واضح وطرق نَهجة والجمع نَهَجات نُهُج ونُهُوج[11]، وتطلق كذلك كلمة نهج على تسمية بعض الشوارع والطرق.

وتمت تسمية الكتاب الذي ضم خطب الإمام علي رضي الله عنه بـ: (نهج البلاغة)، ولهذا قصدية علمية ودلالة على أهمية المصنف، وجاءت اللفظة في بيت شعري لابن الرومي :

أمامَكَ فانظُرْ أيَّ نَهجَيْكَ تَنهَجُ طريقان شتَّى : مستقيمٌ وأعوجُ[12].

ومن الباحثين من لا يفرق بين المنهج والمنهجية، ويطلق أحد المصطلحين على المفهوم نفسه، "وإذا كان المنهج يُجمع على مناهج، فالمنهجية جمعها منهجيات، ولا فرق بين المصطلحين، وبحسب بعض الباحثين أن المنهجية مجموعة من التقنيات والإرشادات لكتابة البحث، ويقصرون معناها على هذا الجانب"[13].

وفي نظر الباحث أحمد علبي أن هذا التمييز خطأ فادح وقاصر، "...وبناء على هذا التعريف الجزئي والخاطئ للمنهجية ينطلقون إلى وضع التمايزات بين المنهج والمنهجية، ذاهبين إلى أن المنهج يعنى بطرائق البحث وأساليبه ومصطلحاته، وأنه يختلف من علم إلى آخر، وأنه قابل لعملية النقد والتقويم، وأنه أخيرا مرتبط بالمنطق وطرق الاستدلال والاستنتاج. إنها أمور تعود إلى المنهج، وهي متغيرة، متطورة، في حين أن المنهجية، في نظر هذا الفريق من الباحثين، جملة قواعد ثابتة"[14].

فالمنهجية منسوبة إلى المنهج، والمنهج والمنهاج، والجمع مناهج، ومنه منهج أو مناهج التعليم أو الدروس[15].

والمنهج يعني الطريقة التي يتبعها الإنسان للوصول إلى الحقيقة و تكمن مزاياه في توفير الكثير من العناء و الجهد و تيسير الحياة للإنسان بصفة عامة.

أما عن تاريخ المنهج فقديم قدم المعرفة الإنسانية غير أنه كان عند القدماء ساذجا فرديا ثم أخذ يخطو خطوات مع تطور الحضارات و الثقافات و المعارف فحضارات مصر و الصين مثلا و العراق تشهد على ذلك و لا يستطيع قائل أن يقول أنها حضارات قامت من غير منهج، غير أن البداية الحقيقية والصورة الواضحة في استخدام المنهج في شتى العلوم كانت بدايات القرن السابع عشر (17)، خاصة على يد الفيلسوف الإنجليزي "بيكون" 1561-1626 و الفيلسوف الفرنسي "ديكارت" 1596-1650، فقد نصا على طريقتين في البحث و الدراسة:الاستدلالية في الرياضيات والتجريبية في الطبيعيات وقد نبه "ديكارت"[16] إلى أهمية و قيمة المنهج حتى ذهب إلى القول: إن الإنسان لا يمكنه التماس الحقيقة من غير منهج. وتضاف إلى إسهامات الدارسين الرائدين المذكورين في تأسيس منهج البحث جهود الفيلسوف الألماني "كانت" 1724- 1804. فقد قدم هو الأخر إسهامات جادة في علم المنهج من خلال استخدامه المنطق وقد تركزت محاولاته في إرساء معالم المناهج السابقة الذكر و

بالخصوص مجال الفلسفة –التي صار لها بفضله– منطقها و منهجها لبلوغ المعرفة و إقرارها.

وفي القرن التاسع عشر ازدهر أكثر منهج البحث العلمي و توسع و لم يبق مقتصرا على حقل العلوم السابقة فقد برز حوله الجدال و اشتد النقاش و دخل المؤرخون الحلبة حيث طالبوا هم كذالك بإدخاله في بحوثهم التاريخية و أقيمت حوله محاضرات ومناظرات فقال غيرهم أن التاريخ قصة والقصة إنشاء وفن و أن التاريخ لا يعطينا إلا أثارا بالية، ثم هناك من قال أن التاريخ علم كذلك كباقي العلوم الأخرى جدير باستخدام المنهج، وتواصل النقاش في مدى صلاحية وجدوى استخدام المنهج في البحوث التاريخية هناك من ينفي و هناك من يؤكد اعتماده في البحوث التاريخية إلى أن جاء من توسط في الأمر و يقر بأن التاريخ ليس علما صرفا لكنه يمكن أن يكون له شيء من أسس و قواعد العلم في بحوث العلوم الأخرى كعملية الجمع مثلا و الاستقصاء و النقد والتصنيف و التحلي بالموضوعية و الأمانة العلمية الخ... وقد كان لهذه الآراء أثرها في حسم الخلاف في إدخال قواعد المنهج في الدراسات التاريخية حيث ابتعد المؤرخون عن شطحات الخيال و الأحلام الافتراضية أو المطلقة فراحوا هم كذلك يناقشون الأحداث و الأخبار التاريخية و ينقدون و يحققون وفق قواعد علمية و قد راحوا يجمعون تجاربهم في بحوثهم تلك في مقالات و كتب خاصة بمنهج البحث في التاريخ و كان من أشهر رجاله (لانجلو) الذي ألف عام 1898 كتابا سماه "المدخل إلى الدراسات التاريخية" والذي نقله إلي العربية عبد الرحمان بدوي.

وقد أطلق (لانجلو) على منهج الدراسات التاريخية "المنهج الاسترادادي" أي استرداد الأحداث الماضية تبعا لما تركته من أثار وبفعل تلك الجهود و المحاولات والمناظرات اقترب البحث في التاريخ من العلم و ابتعد عن الأدب و أحرز تقدما و نصرا بينا ومتلاحقا خاصة في الجامعات و قد أخذ الأساتذة يلحون على طلبتهم تحري البحث العلمي في بحوثهم التاريخية وبفضله صار للتاريخ درس خاص يعرف بمنهج البحث يسمى "منهج البحث التاريخي".

ثم ما لبث أن امتد المنهج التاريخي إلى الأدب حيث أخذ الباحث في الأدب هو الأخر يتأثر بمنهج البحث التاريخي و ينحو نحوه و أخذ النصر الذي حققه ذلك المنهج يغري الباحثين في الأدب و قالوا أن البحث في الأدب علم كذلك شأنه شأن بقية البحوث في الحقول الأخرى غير أن هناك من بالغ في اعتماد كل قواعد البحث في العلوم الأخرى وأسقطها برمتها على البحث في الأدب والفن بصفة عامة فتصدى بعض النابهين لذلك و قالوا أن

الأدب ليس علما كالتاريخ و للباحث في الأدب أن يأخذ أشياء من طريقة العلم و أشياء من صفاته فينقد و يحلل ويصف حتى يصل هو الأخر إلى الحقيقة. و قد أثيرت كذلك في هذا الشأن مجادلات و نقاشات و كتبت حوله مقالات وقد برز نتيجة هذا النقاش ما يسمى ب "تاريخ الأدب" كمادة مستقلة تدرس بالجامعات لها أساتذتها و كتبها تشرح منهج البحث في تاريخ الأدب.

وقد كان للباحث الناقد (لانسون) دور كبير في إرساء منهج البحث من خلال إنجازه الهام "منهج البحث في تاريخ الأدب" و ذلك عام 1901، وقد نوه في كتابه هذا بمساهمة المتقدمين في إرساء منهج البحث العلمي في مختلف الحقول خاصة في حقل التاريخ و الأدب، غير أنه نبه إلى وجود نقاط عامة مشتركة و خاصة بين التاريخ والأدب وأن الفرق في منهج الدراسة ناجم من الفرق في المادة و اعتبر دراسة الأدب حالة خاصة فهو يقترب من التاريخ أحيانا، ويبتعد عنه أحيانا أخرى من حيث الأدوات الإجرائية، لأن الأدب لا يدرك معناه إلا بالتحليل الفني لصياغته المعقدة التي تشترك في تكوينها مجموعة عناصر:لغة، صور خيال، ذاتية الأديب، الخ...

فالأدب وفق هذا، ليس تاريخا كونه يدرس النفس الإنسانية و الحضارة القومية في شتى مظاهرها بينما التاريخ يدرس أحداثها و وقائعها.

في القرن التاسع عشر كذلك، ظهر نقاد كبار منهم (سانت بيف) (Saint Beuve) و (تين) (Taine) اللذان اعتمدا قواعد هذا المنهج في دراستهما الأدبية، غير أنهما بالغا في استخدام المنهج العلمي برمته حيث كادا أن يخرجا في دراستهما عن دائرة الأدب كفن وجمال وهذا ما استدركه "لانسون"، ولاحظ بعض الغلو و نبه إلى تجنب المبالغة في اعتماد قواعد المنهج العلمي في الأدب و أن ما يؤخذ من العلم إنما قواعد البحث العامة المشتركة نظرا لاختلاف ميادين البحث و مادته و قد كان (للانسون) الفضل الكبير في تأسيس منهج الدراسة الأدبية المبنية على قواعد علمية تجاوزت قواعد القدماء في بحوثهم الأدبية[17].

ويعد (برونتير) (Brunetiere) من الدعاة إلى تطبيق المنهج العلمي في الأدب متأثرا بنظرية (داروين) المشهورة في النشوء والإرتقاء، على أساس أن الفنون الأدبية –كالكائنات الحية– تخضع لنفس القانون في نشوئها وتطور أشكالها وأنها –مثلها– يتولد بعضها من بعض، ولم يتوقف برونتير عند هذا الحد بل طبق نظريته الجديدة في تطور الأشكال الأدبية على ثلاثة

فنون في الأدب الفرنسي هي: المسرحوالشعر الغنائي والنقد الأدبي، وتوصل في الأخير أن هذه الفنون لم تكن بالصورة التي هي عليها الآن وإنما خضعت لقوانين وعوامل أدت إلى تطورها وتغيرها مثلما هو الحال بالنسبة للكائنات الحية.

بالنظر إلى تراثنا الأدبي فانه لا يخلو من صفات المنهج يلاحظ ذلك جليا مثلا في مؤلفات بعض القدماء: طبقات فحول الشعر لابن سلام الجمحي و الشعر و الشعراء لابن قتيبة و الأغاني لأبي فرج الأصفهاني، فإن بحوث هؤلاء مبوبة ضمن محاور ومباحث تتسم بالدقة والتنظيم لكن ذلك كان دون ما يلاحظ عند المحدثين من تطور في منهجية البحث من حيث التنظيم و معالجة المادة.

إذن فالمنهج (المنهجية) – حتى وإن اختلف مفهومهما عند الكثير من الدارسين- اتصل بحياة الإنسان منذ القدم ولصق بها إلى اليوم تطور مع تطوراتها وواكبها إلى أن أصبح يطبق بتكنولوجيا عالية مثلما هو الحال بالنسبة للحياة الإنسانية، فالمنهج هو حياة البحث ومستقبله.

البحث صورة الباحث:

اتجهت المناهج النقدية المعاصرة اتجاها صريحا خرقت فيه كل القوانين السائدة من قبل، ووضعت شرخا عميقا في أسس النقد الحديث (السياقي) حينما نادت بفكرة موت المؤلف، ولا بد للناقد أن يتعامل من النص كمدونة قابلة للتحليل والتجريب.

غير أن البحث العلمي يكون عكس ذلك حتى وإن كان في المجال الأدبي وخاصة النقد، إذ يبقى البحث لصيقا باسم صاحبه، ويكون صورة له، حسنة إذا توفرت الشروط التي لابد للباحث أن يلتزم بها، وسيئة إن أخل الباحث بالنظام المعروف في البحث العلمي.

الباحث شخص متميز يعمل على تطبيق المنهج العلمي في بحثه، ولكي يحسن تطبيقه لابد من توفر عدد من الخصال والصفات في شخصه، حتى يصل في نهاية المطاف إلى النتيجة المرجوة من عمله وبالتالي تعم الفائدة عليه وعلى المؤسسة التعليمية التي ينتمي إليها، من الصفات ما يتعلق بالجانب النفسي ومنها ما يتعلق بالجانب الأخلاقي وأخرى تتعلق بالجانب العلمي.

- الصفات النفسية: الباحث كباقي البشر يتأثر ويؤثر، غير أنه يتميز بميزة الإبداع تؤهله لأن يكون كذلك، ولابد أن يعمل على استثمارها ولا تبقى أفكاره حبيسة عقله، "ولعل موهبة (الإبداع)، وهي الصفة الإنسانية الأكثر تحفيزا ليكون المرء باحثا. فالباحث في الأدب، أو في أيّ نوع من أنواع المعرفة، (يفترض أن يكون فيه متفوقا فكريا عن مبدع العمل. لسان حاله يردد: معرفتي فيه أتم، وتفكيري فيه مستمر"[18].

ويردف الإبداع بالرغبة، فإذا غابت اندثر الإبداع ولا يمكن استغلاله من قبل الباحث، فالاجتهاد أو الرغبة شرط رئيس في البحث، وشرط النجاح لأن طريق البحث شاقة ووعرة وطويلة وقد يؤدي انعدام الرغبة إلى الانصراف عن البحث ربما وهو على وشك النهاية فيكون سببا في الفشل و الخسارة التي لم يكن ينتظرها الباحث ولا الذي يشرف عن البحث أستاذا كان أو مؤسسة، و ما أكثر الباحثين الذين يفشلون حتى منذ البداية ولذلك كان الاجتهاد أو الرغبة من أهم الصفات التي يجب أن تتوفر في الباحث.

فالبحث "يحتاج إلى الرغبة فيه، فهو عمل مضن يتطلب تمضية الساعات الطوال بحثا عن الحقيقة، في غير كلل ولا ملل. وليس كلّ منا عنده الأهلية لهذا النمط من العيش، فهو يكاد يكون أحيانا عمل الرهبان والزهاد"[19].

- الصفات الأخلاقية:

وأهمها الموضوعية والتجرد من العاطفة حتى تكون أحكام الباحث حيادية بعيدة عن التحيز أو التعصب مهما كان نوعه، ذلك أن العاطفة كثيرا ما أفسدت أعمال الباحثين و أهدرت جهودهم في غير فائدة فالحقيقة عند الباحث يجب أن تكون هي كل شيء، لأن هدفه يمكن في الوصول إليها سواء اتفقت مع أفكاره و ميوله أو اختلفت أوتعارضت بعيدا عن كل الاعتبارات و الخلفيات الخارجة عن إطار البحث، ومن هذه الصفات أن يتأنى الباحث و لا يستعجل الأحكام أو يفترض حقائق أو نتائج مسبقة، وإنما يترك القيادة لسير البحث والحقائق التي ينتهي إليها من خلال ما يستخلصه من المادة ولا يعنيه إن كانت النتائج توافق أفكاره و ميوله أو متناقضة معها، ومن هذه الصفات الصبر أي التحلي بالصبر بتحمله مشاكل البحث و أتعابه و ما أكثرها فقد توصل الباحث إلى حد اليأس و فقدان الثقة في النفس، ثم التحلي كذالك بصفة التواضع و احترام أراء غيره ونقد أقوالهم إن اقتضى الأمر ذلك بأدب و احترام دون تضخيم أو تهكم أو تجريح كما يبدو في لغة الشارع.

ومن الصفات الأخلاقية كذلك "الأمانة العلمية" و يعني ذلك أن ينقل الباحث رأي أو خبر غيره في دقة دون تحريف أو تزييف بالزيادة أو بالنقصان، و نسبته إلى صاحبه بعيدا عن التشويه أو التزويق إن أعجب الباحث أو أغضبه وأن لا يجعل المناقشة مناظرة أو منافسة، أو اللجوء إلى الكذب و العبث بالنصوص المقتبسة، فعلى الباحث أن يعرض أراء و حجج الآخرين كما وردت و لا مانع بعد ذلك أن يبدي رأيه إن كان الأمر يقتضي

ذلك. ففي مجال البحث الأدبي لا باحث دون أن يمتلك ضميرا يمنعه من الغش و التزييف أو السطو على أفكار غيره فالأمانة نقيض الخيانة و هي أساس تحقيق النجاح و الوصول إلى المبتغى و على الباحث هنا أن يكون جريئا و أن يقول على الباطل أنه باطل و الحق حق دون خوف أو خجل من عدو أو صديق لأن البحث هو قول الحقيقة وإذا رأى أن الأمر يستعصي عليه لعامل ما فالأجدر أن لا يطرق بحثا يحجم فيه أن يبوح بالحقيقة ، يقول الباحث أحمد علبي ناصحا: "وإيّاك أن تعمد إلى شيء من الغش، كأن تأخذ الفكرة كما وردت، ثم تقطعها من حين إلى حين بعبارات ربط من عندك، وتعتقد بعد هذا أنك أديت الأمانة. ومثل هذا المسلك الخاطئ قد يعرض لك وأنت في طور التلخيص لصفحات من كتاب تحتاج إلى إدخالها في صميم بحثك"[20].

- الصفات العلمية:

أولها القراءة الواسعة و أن تكون قراءة الباحث مركزة، نقدية واعية تمكنه من الفهم و التحصيل و لا ينبغي أن يكتفي الباحث في بحثه بالإطلاع على مصادر أو مراجع محدودة معينة، وإنما عليه تتبع الموضوع من جميع جوانبه وأن يقرأ كل ما له صلة من قريب أو من بعيد ببحثه مبتدئا بالمصادر فالمراجع فالرسائل الجامعية التي لها صلة بالموضوع فإن فرغ من قراءته هذه، انتقل إلى ما كتب حول الموضوع من أبحاث و مقالات أو ألقى من محاضرات أو لقاءات إن كانت، وأن لا تكون هذه القراءة مقتصرة على حدود زمانية معينة، بل ينبغي أن تكون ممتدة شاملة فهذه القراءة الواسعة الواعية النقدية هي التي توسع من دائرة معرفة الباحث لمحتوى بحثه و بها تتضح له الرؤية وتسهل عليه عملية الدراسة والموازنة والنقد والتحليل والمناقشة وإبراز شخصية الباحث في ثنايا البحث و أقسامه من خلال التعليق والشرح.

العمل على ترتيب مادة البحث:

إن هذا شرط في أي بحث و أمر لابد منه، سواء ما يتعلق بخطة الموضوع أو بأفكاره و معانيه و إلا كان ضربا من الفوضى أو التناقضات و عرضا لا نظام فيه ولا رابط يربط أجزاءه برباط التناسق المنهجي والفكري.

إن هندسة مادة الموضوع أمر ضروري و لا هدف من بحث تعرض خطته مفككة مشتتة، ذلك أن الشرط الأول في أي بحث أن يربط الباحث بين أجزاء بحثه وبين مادته التي

جمعها من مختلف الوثائق و يوصل ما قرأه أو جمعه أمس وبين ما قرأه أو جمعه من كتاب قديم أو جديد مميزا بين الأهم و المهم و ما من شأنه أن يقدم أو يؤخر دون تناقض أو اضطراب.

إن كثرة معلومات الباحث في بحثه قد لا تجعله باحثا جادا إن عجز عن التنظيم وما أكثر الباحثين الذين يفتقدون القدرة على التنظيم و تبويب مادة بحثهم و الربط بين أجزائها. فالباحث عليه أن يكون بناء ماهرا و مهندسا بارعا يبني بمادة بحثه عمارة متناسقة جميلة تبهر الناظرين.

مناقشة الآراء وفهمها:

إن الباحث الذي يتسرع في عمله ويخطئ في فهم محتوى مادة أو نصوص بحثه سيكون معرضا لا محالة للتناقضات و التأويلات و إصدار الأحكام الخاطئة أو المتناقضة، ولتجنب ذلك ينبغي عليه أن يكون دقيق الفهم وأن يتريث فيما يصدر من أحكام و أن لا يتأثر بشهرة من ينقل عنهم أو يغتر بمكانتهم إلا بقدر ما توحي به آراؤهم من حقائق علمية صحيحة، ويجدر هنا أن يكون الباحث متذوقا للنصوص المقتبسة لما لذلك من مزايا لأن غياب التذوق الأدبي يفسد عمل الباحث ولا يكون الباحث منفعلا مسرورا و مدفوعا إلى عمله، بل يستعصي عليه الفهم الصحيح ويصبح عمله آليا جافا لا رغبة فيه ولا حيوية، والتذوق فطري يناله الباحث من استعداده الأدبي الخاص، ومكتسب يأتي من طول القراءة للنصوص الأدبية فتنغرس فيه ملكة تذوق الأدب عامة.

الشك العلمي:

إن الشك من أسلحة الباحث و عليه أن يشك فيما يقرأ أو ينقل مهما بلغت قيمة مصدر النص الذي نقل عنه أو شهرة صاحبه أو جلال المصدر أو المرجع الذي ينقل عنه إلا بعد تأمله و فحصه بالمقاييس العلمية إلا ما يتعلق بالقرآن الكريم و سنة الرسول صلى الله عليه وسلم، فلا ينبغي مثلا أن يأخذ الباحث مسألة الانتحال و حقيقة الشعر الجاهلي التي طرحها طه حسين أخذ المسلمات دون حجة كافية و دون مناقشة وافية، وتحليل و تعليل، يقول الجاحظ: "فاعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة له، لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له، وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلما، فلو لم يكن في ذلك إلا تعرف التوقف، ثم التثبت، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه، ثم اعلم أن الشك في طبقات عند جميعهم، ولم يجمعوا على أن اليقين طبقات في القوة والضعف"[21].

إن الشك طريق اليقين و يقال "سوء الظن من حسن الفطن" و يعني هذا أن لا يقبل الباحث كل ما يقرأ أو يسمع دون نظر و دون تمعن و نقد و دون شك في صحة الرأي أو الخبر، فقد يخدع الباحث برأي أو خبر أو شهرة شخص أو دارس ما، فعلى الباحث أن يشك و يحتاط و أن يقرأ الخبر أو القول بتمعن حتى يصل إلى حقيقته، و هذا النوع من الشك إنما هو شك علمي بناء يبحث عن وجه الحقيقة و مظهر حضاري و دليل على صحة العقل، و هو ثمرة للذكاء و الملاحظة الواعية يصل به الباحث إلى الحقيقة أما الشك الذي يراد به المغالبة و المشاحنة وتغليب الباطل على الحق فهو خارج حدود الشك العلمي،بل هو ظلال منبوذ في حقل البحث الأدبي العلمي الأكاديمي.

أهمية معرفة اللغات الأخرى:

من الأمور التي أصبحت ذات أهمية في مختلف البحوث هي معرفة اللغات الأجنبية لما تفتحه للباحث من أبواب كانت موصدة و ما تشير إلى تلك البحوث التي لها صلة بالموضوع، زيادة على ما تمد الباحث من عناوين لمصادر و مراجع لم تقع عليها يد الباحث من قبل ولذلك فمن أسوأ الأمور أن يعالج الباحث بحثه بلغة وحيدة مجردة دون التفتح على ما كتب في الموضوع في اللغات الأخرى.

إن تعدد اللغات في شخص الباحث أشبه بالمصابيح التي تنير سبيله فيهتدي إلى معالم بحثه و خاصة إذا كان الموضوع يقتفي ذلك، كدراسة المذاهب الأدبية الغربية المعاصرة أو في الدراسات الأدبية المقارنة، و تشتد الحاجة إلى هذه اللغات أكثر لما يتعلق الأمر بكشف وإبطال بعض المزاعم و المفتريات في كتابات بعض الغربيين وخاصة المستشرقين تجاه الثقافة العربية الإسلامية. فإن جهل لغة هؤلاء تبقي مزاعمهم مدسوسة في ثنايا أعمالهم نقرأها و كأنها مسلمات أوحقائق علمية صحيحة بينما هي افتراءات و إسقاطات.

تنوع الثقافات:

إن تعدد الثقافات في الباحث لا يقل عن معرفة اللغات الأخرى، فحياة الأديب مثلا تقتضي معرفة التاريخ الذي عاش فيه وخصائص البيئة و اختلافها وأثر هذا الاختلاف في نشأة الفرد خاصة الأديب ومواهبه واستعداداته، ويصدق هذا على علم النفس، فالباحث في حاجة إليه ليعرف من خلاله حالة الأديب النفسية وعلاقتها بأدبه وما تركته من بصمات في أعماله لأن الأديب عادة ما يكتب تحت ضغط المؤثرات النفسية وهذا يصعب أو يتعذر على غير العارفين بخبايا علم النفس و مثل ذلك بالنسبة لعلم الاجتماع و الجغرافيا و علوم الفقه

فدراسة شخصية علي بن أبي طالب مثلا تصعب على باحث يجهل أسس المذاهب الفقهية و علوم البلاغة الخ...

ومجمل القول، أنه يتوجب على الباحث أن يتصف بما يلي[22]:

- حب الاستطلاع والمعرفة.
- الميول والعادات العقلية المفيدة علميا مثل ملكة النقد فيما يتعلق بتحليل وتقويم المواد المكتوبة وكذلك التشكك في المبادئ والمذاهب المسلم بها.
- توفر المؤهلات العلمية والتدريبية المناسبة كأن يحمل مؤهلا جامعيا ويتدرب على موضوعات متعددة مثل العلوم والرياضيات والمنطق والإحصاء وغيرها.
- أن يكتسب قدرا من المهارة في عدد من التقنيات ومن أمثلة ذلك التعبير عن الأشياء بلغة الرموز ومعالجة العلاقات القائمة بينها وصياغة ومعالجة الأفكار بلغة صورية وتقويم مدى صحة هذه العمليات ومعالجة البيانات وفهم مدلولاتها وتصميم التجارب...الخ.
- النزاهة والأمانة والصبر والمثابرة والاستعداد للعمل الجماعي.
- عدم التشهير العلمي بالآخرين والسخرية من منجزاتهم.
- الموضوعية والأمانة والبعد عن الذاتية والقومية.
- الرغبة الجادة والصادقة في البحث.
- وضوح التفكير وصفاء الذهن ليتمكن الباحث من جمع الحقائق.
- المعرفة السابقة حول موضوع ومشكلة البحث وخاصة في البحث الأدبي الذي يفرض على الباحث التراكم المعرفي حتى يصل إلى الهدف.
- عدم الإكثار من الإقتباس والحشو.

وعليه، فالبحث هو مولود جديد يزدان به الرصيد الثقافي والمعرفي لأمة من الأمم، بيد أن هذا البحث قد يأتي بالإيجاب على صاحبه، ويكون صورة من الصور الحسنة التي تحسب له، ومن ثم تنعكس هذه الصورة على المؤسسة أو الأمة التي ينتمي إليها الباحث، والعكس إذا كان البحث سيئا فإن النتيجة تنعكس على صاحبه ومؤسسته، وتحديد الجامعة التي تعد مرآة عاكسة للبحث وصاحبه.

الجامعة الوجه الآخر للبحث العلمي:

المعروف أن الجامعة هي الفضاء الأرحب المشجع لعملية البحث، إن لم نقل أنها المؤسسة الوحيدة التي تخرج الآلاف من الباحثين، بعد أن يقدموا أبحاثا يشرف عليها أساتذة أكْفاء، متمرسين، ويناقشها مجموعة من الباحثين، ليخرج البحث في صورته النهائية المقبولة.

تقوم الجامعة كهيئة إدارية بضمان التأطير للباحث، بعد تكوينه لمدة محددة قانونا، كما أنها ترخص له بمناقشة بحثه بعد أن يمر على لجنة القراءة، لتكون بعد ذلك العنصر الفعال في عملية البحث، كون أن البحث يحمل اسم الجامعة وشعارها، كما تفرض على الباحث الشروط الشكلية والجمالية المعمول بها، "لما كانت كل الجامعات تشترط الطبع، فهي تضع شروطا خاصة بمقاسات الورق، وعدد الأسطر في كل صفحة، ومسافة الفراغ بين كل سطر وسطر، وبياض الحواشي، وأسطر الهوامش والمسافات بينها، والحرف المستعمل، وهندسة الصفحات وعناوينها، وتجليد البحث..."[23].

إذن فالجامعة هي الوريث الشرعي للبحث العلمي، بعد صاحبه، لأنها هي المؤسسة التي تبنته كمشروع مستقبلي، فهي وجه من الوجوه التي تتحمل تبعات البحث، ويقع على عاتقها مسؤولية جودته أو رداءته، طبعا بعد الباحث ومشرفه واللجنة المناقشة للبحث.

يمكن أن نمثل البحث العلمي في الخطاطة الآتية:

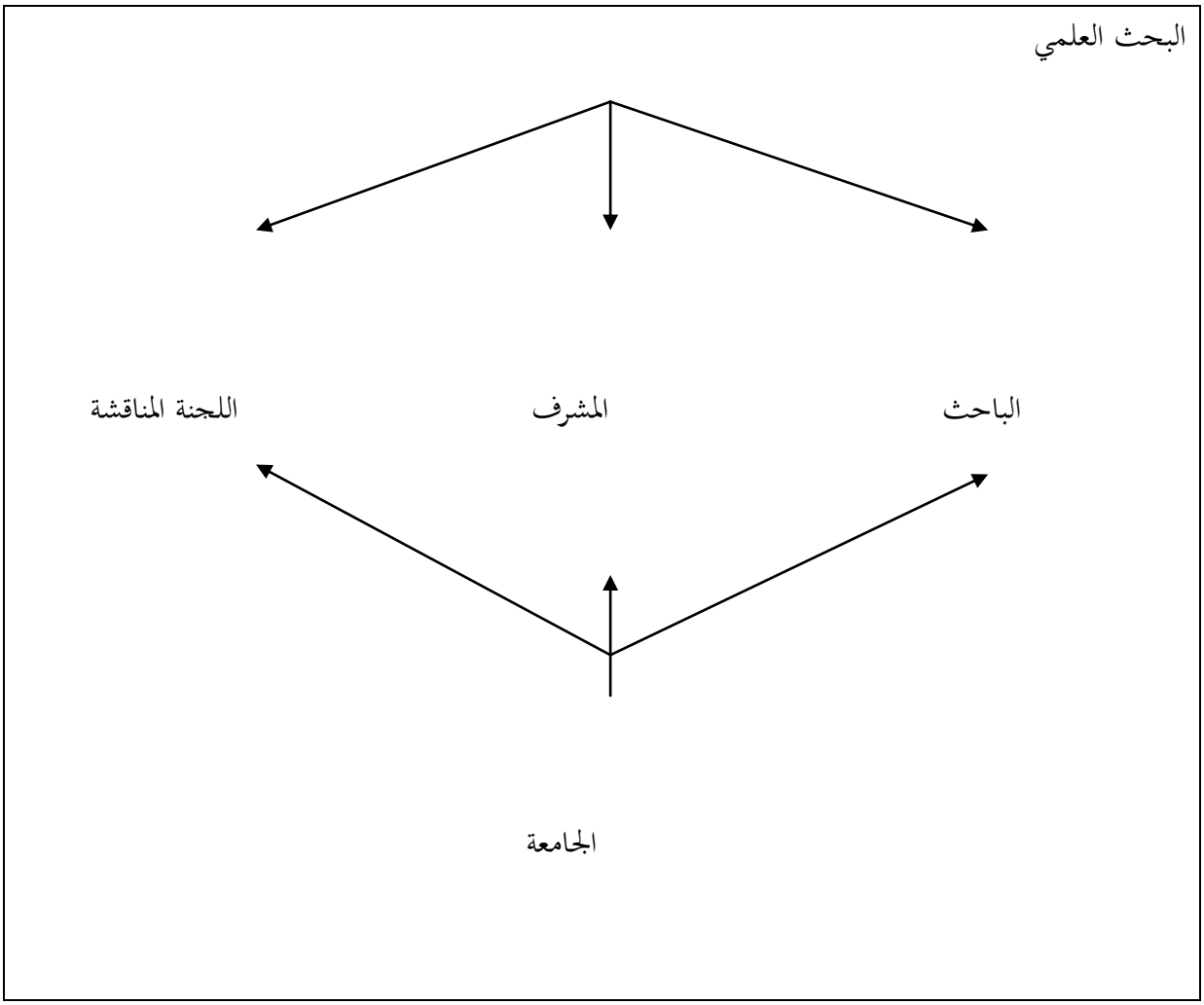

ما يمكن استنتاجه من خلال هذا البحث هو أن الدراسة العلمية لها انعكاسات على حياة الفرد والمجتمع، إذ يترقى الباحث بعمله إلى أرقى الرتب، ويؤثر في مجتمعه بأبحاثه وأعماله العلمية، كما أن ذلك ينعكس على المؤسسة التي ينتمي إليها، فنجاح الجامعة من نجاح باحثيها وأبحاثهم، فالبحث صورة لصاحبه مرآة للجامعة.

1. ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت لبنان، ص:114.
2. ينظر: جودت عزت عطوي، أساليب البحث العلمي، مفاهيمه، أدواته، طرقه الإحصائية، دار الثقافة، عمان الأردن، ط1 (2007) ص: 41.
3. ربحي مصطفى عليان وعثمان محمد غنيم: أساليب البحث العلمي، الأسس النظرية والتطبيق العملي، دار صفاء، عمان الأردن،ط2 (2008)، ص:19.
4. ينظر: جودت عزت عطوي، مرجع سابق، ص:42.
5. عبد الرحمن الهاشمي ومحسن علي عطية: تحليل محتوى مناهج اللغة العربية، رؤية نظرية تطبيقية، دار صفاء، عمان الأردن،ط1(2009)، ص:64- 65
6. أحمد علبي: المنهجية في البحث الأدبي، دار الفارابي، بيروت لبنان، ط1(1999)، ص:39.
7. جودت عزت عطوي، مرجع سابق، ص:47.
8. المرجع نفسه، ص: 53.
9. خالد إبراهيم يوسف: منهجية البحث الأدبي الجامعي، دار النهضة العربية، بيروت لبنان، 2010، ص: 14.
10. ينظر: ربحي مصطفى عليان وعثمان محمد غنيم، ص:25.
11. ينظر: ابن منظور، مصدر سابق، ص: 383.
12. ابن الرومي: الديوان، شرح: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان،ط3(2002)، ج1، ص:305.
13. أحمد علبي: مرجع سابق، ص: 21.
14. المرجع نفسه، ص:21.
15. خالد إبراهيم يوسف:مرجع سابق ، ص: 13.
16. -يوسف خليف: مناهج البحث الأدبي، دارغريب، القاهرة مصر، 2004، ص:18.
17. ينظر: المرجع نفسه، ص: 25.
18. خالد إبراهيم يوسف:مرجع سابق ، ص: 53.

19. أحمد علبي: مرجع سابق، ص: 33.

20. المرجع نفسه، ص:36.

21. الجاحظ: الحيوان، تح: عبد السلام هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة (1945)، ج6، ص:34.

22. ينظر: جودت عزت عطوي، مرجع سابق، ص:54.

23. خالد إبراهيم يوسف:مرجع سابق ، ص: 129.

قائمة المصادر والمراجع:

1–أحمد علبي: المنهجية في البحث الأدبي، دار الفارابي، بيروت لبنان، ط1(1999).

2–الجاحظ: الحيوان، تح: عبد السلام هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة (1945)، ج6.

3–جودت عزت عطوي، أساليب البحث العلمي، مفاهيمه، أدواته، طرقه الإحصائية، دار الثقافة، عمان الأردن، ط1 (2007) .

4–خالد إبراهيم يوسف: منهجية البحث الأدبي الجامعي، دار النهضة العربية، بيروت لبنان، 2010.

5–ربحي مصطفى عليان وعثمان محمد غنيم: أساليب البحث العلمي، الأسس النظرية والتطبيق العملي، دار صفاء، عمان الأردن،ط2 (2008).

6–عبد الرحمن الهاشمي ومحسن علي عطية: تحليل محتوى مناهج اللغة العربية، رؤية نظرية تطبيقية، دار صفاء، عمان الأردن،ط1(2009).

7–ابن الرومي: الديوان، شرح: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان،ط3(2002).

8–ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت لبنان.

9–-يوسف خليف: مناهج البحث الأدبي، دارغريب، القاهرة مصر، 2004.